

شروط التنظير في العلوم الاجتماعية في العالم العربي المعاصر Theorization conditions of social sciences in modern Arab world

نادية مفتاح¹، ليلى مباركي²

¹ جامعة محمد البشير الإبراهيمي برج بوعريبيج (الجزائر)،

dr.meftah.nadia@gmail.com

² جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة 2 (الجزائر)، -leyla.mebarki@univ-

constantine2.dz

تاريخ النشر: 2022/06/11

تاريخ القبول: 2022/03/09

تاريخ الاستلام: 2021/08/25

Abstract:

The research in this article aims to analyze the conditions of theorizing of the field of social sciences in the contemporary Arab world; because of the Importance of theorizing in establishing a theoretical reference capable of containing the problems of the Arab world; for a long time; social sciences monitored the past and present changes in societies .the Arab society has experienced distinct historical circumstances and determinants and it is necessary

To direct efforts and research from this reality to develop the findings of western theories.

Key words: Theory, social sciences, Arab world.

الملخص:

تهدف الدراسة في هذا المقال إلى البحث في شروط التنظير في العلوم الاجتماعية في الوطن العربي المعاصر لما للتنظير من أهمية كبرى في تأسيس مرجعية نظرية قادرة على احتواء واقع المجتمعات العربية والخصوصية التي تتمتع بها، بالإضافة إلى رصد التغيرات الماضية والحاضرة والأوضاع الراهنة، على اعتبار أن هذه المجتمعات عاشت ظروفًا ومحددات تاريخية مميزة فإنه ضروري أن تتوجه البحوث لدراسة هذا الواقع وتطوير ما توصلت إليه النظريات في الغرب وبناء إطار نظري ضمن شروط معرفية ومجتمعية قادرة على إحتواء مشكلاته.

الكلمات المفتاحية: النظرية، العلوم الاجتماعية، العالم العربي

1. مقدمة:

تعد النظرية زبدة الجهود البحثية التي يقوم بها الباحثون في كل العلوم وخاصة في العلوم الاجتماعية فهي إن صح التعبير العلم، القوانين والمفاهيم المفسرة للظواهر إلا أننا نسجل تطوراً كبيراً لهذه النظريات في المجتمع الغربي حيث تعددت الأطر النظرية وتفرعت في اتجاهات كثيرة حتى أنها واكبت تطور المجتمع في كل مراحله إلا أنه على المستوى العربي بقي الفكر العربي حبيس الفكر الغربي مما أدى إلى عدم تطور العلوم الاجتماعية وبقاء الانجازات التي قام بها الباحثون في هذا المجال، لم تقدم القدر الكافي - لبناء معرفي نظري- ومحاولة الخروج من الصراعات الفكرية والاختلافات الإيديولوجية وحتى المذهبية، على الرغم من أن الفكر الإسلامي استطاع أن يخوض في بعض المسائل مثل ما فعل الفارابي في كتابه "آراء أهل المدينة الفاضلة" وجهد ابن خلدون فيما بعد عندما شبه عمر الدولة بعمر الإنسان، فإن ذلك لم يحقق للفكر العربي المواصلة الصحيحة لبلوغ مرتبة الإنتاج المعرفي، لذلك بات اليوم من الضروري خروج العلوم الاجتماعية من ذلك النفق الأسود الذي أكسبها العقم المعرفي. يبدو إذن هنا أن الأمر ضروري وحتمي، أن تتوجه الأبحاث وجهود الباحثين لحصر ورصد الشروط التي تسمح ببناء نظريات واعية تكون قادرة على تقديم التفسيرات السوسولوجية وفق خصوصية ومتطلبات هذه المجتمعات، أي المجتمعات العربية وتجاوز الخطوة التي يمكن بموجبها الابتعاد عن الاستهلاك للنظريات الغربية مع ما تتميز به المجتمعات العربية من الخصوصية سواء كانت تاريخية أو اجتماعية أو حتى ثقافية مما يجعل عملية المطابقة في استخدام هذه النظريات أمراً صعباً.

إن التنظير هو تلك المرحلة المعرفية التي تسبق تأسيس النظرية، وعليه فالبحث في الشروط الممكنة في التنظير في العلوم الاجتماعية في الوطن العربي يتطلب منا الرجوع أولاً إلى التراث المعرفي والنظري الغربي كانطلاقة أساسية لبناء أطر تتطوّر من واقع المجتمعات العربية بكل تحولاتها وطموحاتها المستقبلية وتاريخها المميز.

الإشكالية:

إن للنظرية أهمية قصوى بالنسبة للعلم فبدونها لا وجود لإمكانية تطور العلوم وأمام الأزمة التي يعاني منها الفكر العربي والإسلامي المسؤولية ثقيلة للمفكرين والباحثين للاجتهاد من أجل توحيد الفكر لبناء أطر نظرية تستوعب الواقع المعاش وتتطلع للتحكم في المستقبل

بمعنى تحقيق فكرة التنبؤ لذلك نخوض في هذا الموضوع من زاوية تحقق لنا البحث في الإشكالية التالية:

ما هي الشروط الممكن توفرها لبناء نظرية اجتماعية تابعة من الفكر العربي المعاصر؟ إن فكرة توحيد الفكر ربما مستحيلة في ميدان العلوم الاجتماعية على اعتبار اختلاف الطبيعة البشرية واختلاف الظروف المحيطة بها والعوامل المؤثرة يبقى الأمر على مستوى النظرية يتطلب الاتفاق على المسلمات بالدليل والبرهان والتسليم بأهمية الذات كمصدر مهم للمعرفة الصادقة تلك الذات التي تمثل مصدر القوة والتغيير بمعنى القدرة على رفع مستوى الفكر في المجتمعات العربية المعاصرة.

فإذا كان ما عاشته أوربا من أحداث كافي لحمل عجلة العلم والمعرفة تتقدم متوازياً مع عجلة التقدم الاقتصادي والسياسي والاجتماعي فإن الأمر كذلك لن يكون مستحيلاً في الوطن العربي الذي عرف أيضاً موجة من التطورات والتحولات ويملك ما يكفي من المقدمات للتفكير والبحث والبناء لطرح نظري تجعله ينفرد به لتحليل ما يحدث من حولنا وضمن هذا السياق تتجلى علاقة النظرية بالبناء الاجتماعي العربي لأننا أمام فكر سوسيولوجي كما أنتجه علماء الغرب والواقع العربي على شكل ثنائية غير متوازية.

لقد حظي العالم العربي باهتمام البعض من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بسبب المكانة التي يحظى بها حضارياً وحلقة التواصل التي يحتلها مع الحضارة الأوربية وفي الصراع السياسي والعقائدي منذ سقوط الأندلس، فالحروب الصليبية ثم الاستعمار الأوربي الحديث فالتبعية أخيراً بكل أشكالها، بالإضافة إلى الدراسات الاستشراقية التي اهتمت بقضايا الإسلام وقضايا العرب على المستوى الفكري والديني والثقافي، ساهمت كلها في تدعيم وتكوين صورة عامة عن الإنسان العربي وساهمت هذه الاهتمامات في خلط مفهوم العروبة بمفهوم الإسلام هذا الذي جعل من الدراسات التي أقيمت حول هذه المجتمعات لم تقدم شيئاً لا للفكر العربي ولا للمجتمع العربي.

إن الفكر العربي انحصر في ثلاث تيارات رئيسية الأول رافضاً للفكر الغربي ويدعو إلى علوم اجتماعية إسلامية وثاني يدعو إلى علم اجتماع عربي يتأسس على أنقاض الفكر

الخدوني بمعنى تأسيس نظرية انتقائية من النظرية الغربية (غربي، 2007، ص 246)، كما سعى تيار ثالث إلى بناء فكر عربي خاص.

إن الكتابات التي تم إنجازها أصبحت قديمة في حين الواقع الجديد يتطلب المراجعة الدورية والتغيرات في المنظومة القيمية وفي القوانين التي تفسر الواقع الجديد.

إن الحقيقة التي لا بد أن تسجلها لمعالجة هذا الموضوع هي مسألة توطين العلوم الاجتماعية التي لا تطرح فقط على مستوى كيفية بحيث تصبح أطرها النظرية وأجهزتها الهيمنة ومناهجها نابعة من واقع المجتمع العربي بما يجعله من خصوصية وتعبير أيضا عنه، ولأن مسألة السعي للتنظير في العلوم الاجتماعية في الوطن العربي هي مسألة حضارية لفهم المكانة الخاصة التي يحتلها هذا المجتمع بكل ثقله التاريخي بالنسبة للغرب المسيحي، لأن الآليات التي صيغت القوانين والمفاهيم والمبادئ العلمية هي آليات خارج إطار حدوده المكانية والزمانية، ولأن الجهود للتنظير يقودنا للحديث عن المجتمع الذي يكتسي بالضرورة طابعا نسبيا (Giddens, 1973, p113-117)، وهذا من شأنه أن يفتح المجال لتطوير الفكر الاستمولوجي الذي يتماشى مع هذه الخصوصية مما يسمح بإخضاع مناهج البحث وتقنياته وكذلك الأطر المفاهيمية إلى الفحص والنقد لإعادة البناء، هذا يمكن للمعرفة العلمية أن تأكد صفة الشمولية وتقدم العناصر الضرورية لتطوير الفكر العلمي على الرغم من أن وضعية العلوم الاجتماعية لا تحسد على ما هي عليه في الخصوصية الثقافية العربية الإسلامية التي لم تستطع أن تحقق الاستقلالية سواء من تأثير الفكر الغربي وأيضا من تأثير الفكر الديني التي يمارس ضغوطا في توجيه التفكير وصياغته وحصره، نقصد هنا بالتفكير الديني ما تعلق بالتفكير الفقهي الذي يتميز بالاجتهاد في فهم النصوص في القرآن والذي خضع في الكثير إلى المذاهب والتيارات.

لذا المحاولات المعاصرة من شأنها أن تفتح المجال لمواجهة مسألة النقل والاهتمام بالبحث في المواضيع التي يستحث التحليل والتفسير لبناء الأطر النظرية الكافية للتحليل.

2. خلفية تاريخية عن بناء النظرية في العلوم الاجتماعية

لقد عرفت العلوم الاجتماعية مسارا نظريا متنوعا ومتعدد التوجهات والانطلاقات التي تناولت التنظيم الاجتماعي بما حوله من العلاقات الإنسانية والاجتماعية وطبقات وصراع إلى غير ذلك، حيث أكد التحليل الماركسي في هذا المسعى إلى بناء طرح في سياق يركز على

أساس التناقض داخل البناء الاجتماعي اعتمادا على عاملين أساسيين هما: قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج وهي ظروف موضوعية معطاة وضرورات بشرية، هكذا يركز التحليل الماركسي في هذا الشأن على الظروف الموضوعية على أنها مركب على القوى الطبيعية والقوى التقنية والتنظيم الاجتماعي الذي يهدف إلى كفاية حاجات الإنسان الضرورية والاقتصادية (الأخرس، 1984، ص 85-87).

معنى ذلك أن النظرية الماركسية نشأت وتطورت في إطار هذه الظروف واعتمدت على البنية التحتية Substructure والبنية الفوقية Superstructure على الرغم من أن توجه الماركسية كان حول التنظيم الصناعي واعتمادها في تحليل -القضايا المتعلقة به- على العنصر الاقتصادي كأساس وإهمال باقي العوامل الأخرى التي لا تقل أهمية على التأثير المادي (زهري وقباري، 1985، ص 168-170) والمكونة للتنظيم الاجتماعي. إن الجهود العلمية الأخرى قادت المفكرين إلى تطوير الفكر وتطوير المجتمع وتحديد الملامح الأساسية للتفكير المنطقي السليم.

وإذا حاولنا رصد الأوضاع المحيطة بالعالم الإسلامي لنتبع الفجوات التاريخية التي حالت دون تطوير النظرية في العلوم الاجتماعية في هذه البلدان فإنه يمكننا رصد دقيق لحلقات متصلة من الصراع بين تيارات متنوعة ففي منتصف القرن (5 الهجري) عرفت البلاد العربية صراع وعرفت أيضا هذه البلدان حقب متعاقبة متصلة وفق معيار قوامه تحديد المعالم والانعطافات والتحويلات نتيجة تغيرات سوسيو-سياسية ترتبت عليها تحولات أخرى موازية في البنى الفكرية والتشريعية وبذلك نكون قد تجاوزنا المعايير الكلاسيكية التي مزقت هذا التاريخ انطلاقا من رؤى كرونولوجية وإثنية وثيولوجية.

وهذا الأمر ساهم بشكل ما تزال قضايا الخلاف قائمة واشكاليات تتعلق بالمنهج والرؤية ودراسة الحقبة التي اصطلح على تسميتها بعصر السيادة الاقطاعية بدراسة نظرية تركز أساسا حول مشروعية الرؤية ومصداقية المنهج وصحة الاصطلاح (محمود، 1992، ص 9) هذا الذي يعني ويشكل واضح أن الجهود في البحث والبناء النظري موجودة خاصة منها المعاصرة وحتى إن كانت قد توجهت إلى مواضيع مختلفة مثل الدراسات حول البورجوازية أو الإقطاع بالرغم من الاختلافات التي وقعت حول هذه التسمية وهذا المصطلح والرفض

الشديد لفريق من الباحثين على حد تصريحهم أن العلم الإسلامي قد خلى منه دور البورجوازية كطبقة في تحريك التاريخ ووجود فريق آخر اعترف وأقر بالدور وفعاليتها خاصة على الصعيد الحضاري ، حيث تم الإشارة في هذا المضمار إلى أن البورجوازية الإسلامية لم تكن تجارية فقط بل كانت أيضا تجارية-صناعية على اقتران التجارة بالصناعة في العالم الوسيط "إلا أن منتجو السلع كانوا أيضا هم الذين يتاجرون فيها في الغالب الأعم (جواتيان، 1980)، هذا الذي يعني أن المجتمعات العربية والإسلامية قد مرت تقريبا بنفس المحددات التاريخية القاعدية فيما يخص تطور المجتمع البشري، ولكن لم تأخذ تلك المحددات بنفس الجدية التي تعامل معها الباحثون الغربيون في مجتمعاتهم.

وعليه كان المجال متوفر للتنظير للعلوم الاجتماعية في ظل هذه المبادئ الأساسية ولقد حوت هذه الطبقة أيضا إلى جانب الصناع والتجار والعلماء والكتاب والأطباء الذين امتهنوا الحرف والصناعات فضلا عن اشتغالهم بالعلم والكتابة على الرغم من أن رجال الأعمال شكلوا شريحة فاعلة حيث انصرفوا إلى المغامرات المريحة وجمع المال وأعطوا ظهرهم للسياسة، هذا إذن ما يفسر تدهور البورجوازية في منتصف القرن الخامس الهجري كوسيط في التجارة الدولية في البحر الأبيض المتوسط وفي أيضا البحار الشرقية وهذا التدهور مدده غياب النقابات المتخصصة خلال القرنين الخامس والسادس (5،6) الهجريين وخلو كل المصادر على وجود مصطلح "النقابة" لذلك ظهر العجز فيما تعلق بخلق طبقة عمالية قادرة على الدفاع عن العمال وعن أفرادها إزاء أصحاب العمل على العكس بأن في الغرب البورجوازية حركت التاريخ وحقققت الثورة الاجتماعية عن طريق الصراع الطبقي والحركات العمالية.

لقد تعمدنا الإشارة إلى هذه المصطلحات لأنها ساهمت للتنظير في المجتمعات الغربية وجعلت منها بعض النظريات أساسا لتكوينها مثل المصطلحات التي أسس لها ماركس فيما يتعلق بالوعي الطبقي للبروليتاريا، الاغتراب والصراع الطبقي والتي جعل منها أتباعه مرجعية لتطوير الفكر الماركسي خلال فترات زمنية متعاقبة.

على الرغم من أن فكرة الصراع كانت موجودة في المجتمعات العربية منذ الجاهلية على أساس أن هذا المصطلح في الطبيعة البشرية إلا أن الصراعات الخارجية كانت أقوى على المجتمعات العربية مما أدى وبشكل بديهي فقدان العالم الإسلامي خاصة سيادته شرقا

وغربا على ضفاف البحار ومن ثم كان لهذا نتائج اقتصادية وسياسية وخيمة أثرت على الحركة العلمية والفكرية.

والأمر كان كذلك في دور الأعراب المخرب في مصر والمغرب حيث يستحق هذا الأمر الوقفة والتأني لأن قبائل بنو هلال وسليم احترفت الارتزاق العسكري في بادية الشام وظل البعض منهم على الحياة البداوة الأولى في شبه الجزيرة العربية، فالجزء منهم اتحد مع القرامطة في الصراع مع الفاطميين ولم انهزموا رحلوا إلى مصر وبعدها إلى المغرب، ففي مصر أسكنهم الفاطميون في الصحراء الشرقية بصعيد مصر (ابن خلدون، 1284 هـ، ص13).

إن ذكرنا لهذه الأحداث إنما من أجل الحديث والإشارة إلى الخراب الاقتصادي مما سمح إلى احتكار تجارة المغرب ونقل فوائدها إلى أوروبا مما سمح للقضاء على الاقتصاد المركنتالي ليحل محله اقتصاد رعوي بدائي (كومبار، 1977، ص 59) أساسه الإقطاعية ولذلك يجمع الدارسون لهذه البلاد فكرة ترسيخ الإقطاع القبلي (ابن خلدون، 1284 هـ، ص25)، وحتى أيضا لأكوست تحدثت عن البورجوازية التجارية في ظل هذا النظام إلا أن هذه الأخيرة فقدت دورها السابق.

هكذا تظهر الفوارق بشكل نلمس فيه أن المفاهيم التي يسعى إلى بناءها المختصون في المجال في البلدان الغربية قدمت الأرضية الأساسية للبناء النظري في العلوم الاجتماعية بينما ما حدث فيما سبق في البلدان العربية أن استمرارية الجهد العلمي لم يكن في مستوى يحقق ذلك الأمر الذي تحقق في علم الاجتماع الغربي والاختصاصات القريبة منها.

لكن يبقى الأمر هنا غير منتهي حيث أن التطورات الحاصلة في المجتمعات العربية والاسلامية اليوم يمكن اعتبارها مصدرا أساسيا لبناء معرفة خاصة بالمنطق العربي ووفق الشروط المتاحة لذا يجتمع المختصون في مجال علم الاجتماع ونظرياته حول أهمية النظرية وضرورتها لكل العلوم الاجتماعية واختصاصاتها ولا وجود للعلم دون وجود نظريات حوله ذلك أن أهميتها تزداد خاصة في علم الاجتماع لأن ظواهرها معقدة ومتشابكة مع ظواهر أخرى.

3. تحديد مفاهيم البحث

في كل عمل علمي ويغض النظر عن التخصصات يحتاج الباحث إلى تحديد المفاهيم الأساسية في العمل ومحاولة التعامل معها بشكل يحقق الفائدة للعمل المقدم أو حتى للبحث المنجز من طرف الباحث. لذا ومن خلال العمل نتطرق إلى مفهومين محوريين في هذا البحث.

1.3 مفهوم النظرية:

تشكل النظرية أهمية كبرى لدى الباحثين والمهتمين والمختصين في كل العلوم وأكثر من ذلك تعد ضرورية بشكل حتمي في العلوم الاجتماعية لذا يمكن اعتبار النظرية تهتم بوصف الوقائع وتصنيفها والتنسيق فيما بينها ثم تحليلها وتفسيرها ثم التنبؤ بحدوثها في المستقبل (غربي، 2007، ص 21-22).

لذا وللتعرف على الواقع واستشرافه يلجأ المختص إلى استخدام والتعامل مع النظريات الملائمة أو حتى تشكيل نظريات أخرى، ومن ثم يمكن اعتبار التراث النظري في العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع على وجه التحديد مرجعية أساسية للعمل في هذا الحقل. وبطبيعة الحال فإن النظرية تحتاج خلال مسار تكوينها إلى الإطار العام للمعرفة العلمية التي تسمح لتصنيفها.

يذهب البعض الآخر إلى تعريف النظرية على أنها هي أعلى مستويات المعرفة (زهري وقباري، 1985، ص 257-258) ويشكل التنظيم الاجتماعي كأساس لمجال البحث حيث بينت الدراسات السوسولوجية أن التنظيمات الاجتماعية لا تتمتع بالثبات فهي إذن متحركة وأن الاستقرار والتوازن حالة مؤقتة وبذلك فالنظرية تتميز بأنها انعكاس للواقع الذي تفسره، كما يذهب البعض الآخر ممن يهتم بهذا الجانب من العلوم الاجتماعية أن النظرية هي نسق فكري استنباطي يضم مجموعة من المفاهيم والقضايا توضح العلاقة بين الوقائع (عبد المعطي والهواري، 1986، ص 17-39)، هذا ما يجعلنا نجزم أن النظرية تستمد شرعيتها وصحتها وعلميتها من مطابقتها للواقع المعيش من طرف الجماعات الاجتماعية والمجتمعات البشرية.

2.3 تحديد مفهوم العلوم الاجتماعية:

هي العلوم التي تشترك في الاهتمام ليس بالإنسان فقط وإنما إلى مجموع السلوكيات الاجتماعية والتي لا يمكن فهمها إلا بإرجاعها لوجود الجماعة (Lexique de sociologie,)

(2007, p264)، نستكشف من هذا أن الأمر يتعلق بجعل معرفي أو سلوك إنساني (للباحث) والذي يصطدم بسلوكيات إنسانية أخرى (موضوع البحث) أين يتضح أن الباحث ليس هو الوحيد الذي ينتج خطابا وتحليلا لذا تعد القطيعة الإبيستيمولوجية شرطا أساسيا لعملية الخطاب فالعلوم الاجتماعية ليست الوسيلة الوحيدة لفهم الواقع الاجتماعي ولكنها الوسيلة التي تمكننا من التقرب إلى المجالات الأخرى (Guillaume, 1986, p4).

يتحقق هذا الغرض لأن العلوم الاجتماعية هي علوم تحيط بالإنسان فالعلوم الاجتماعية بهذا الشكل تهتم بالبحث والتحليل في ظواهر كما أشار إليها دوركايم "كشين" بمعنى أن كل موضوع للمعرفة لا يصل إليها العقل إلا إذا خرج من انطوائه على نفسه وحاول فهمه عن طريق الملاحظة والتجربة وتستدعي هذه المعرفة أن يبدأ الباحث بالصفات الأكثر ظاهرية والتي تقع تحت حسه المباشر (عبد الهادي، 2007، ص 24).

وعليه يمكن أن تستكشف أن العلوم الاجتماعية كعلوم تتطلب طريقة معينة للتعامل مع طبيعة خاصة للظواهر التي ترتبط بالفرد والجماعة.

نستخلص من التعريف ومما سبق أهم العناصر الأساسية في بناء النظرية وهي على ما يلي (عبد المعطي والهوراي، 1986، ص 317):

المفاهيم.

القضايا.

البناء المنطقي.

وإذا حاولنا الاستفادة من هذا التعريف نستطيع أن نكتشف أننا نستطيع أن نؤسس بموجبه لعلوم اجتماعية عربية تستوحي القوانين والمفاهيم من قضايا الواقع العربي وعليه يمكن اعتبار هذا التعريف الأقرب للتعامل معه في هذا العمل من أجل تحديد ملامح المجتمع العربي وشخصيته.

4. الشروط الإبيستيمولوجية والمعرفية لبناء النظرية في العلوم الاجتماعية:

1.4 الجانب الإبيستيمولوجي:

يحتاج العلم في البناء إلى رواية منطقية بدلالة معطيات علمية كما أشار إليه Rober Blanché (بلانشي، 2004، ص3) إن ما تعانیه العلوم الاجتماعية في الوطن العربي من

مشكلات هو ما تعلق بالمجالات والاتجاهات حول المعرفة العلمية في حد ذاتها وأكثر من ذلك عدم التحكم في التكنولوجيا على اعتبار أنها من مصدر رياضي فيزيائي حيث الابستيمولوجية تعتمد عليه كأساس لبناء آخر والتي ساهمت أيضا في ظهور معالمها (أي الابستيمولوجية) وذلك في حضان تطور العلوم الرياضية.

وهنا لا يمكننا أن نغفل عن جهد المفكرين العرب ونظرتهم حول تصنيف العلوم على المستوى الابستيمولوجي.

وبما أن الابستيمولوجيا علم فإنها تتمتع بالشمولية والموضوعية ومن ثم فهي قابلة لأن تتجاوز الواقع الذي تأسست في حوضه وبما أن اللغة هي التي تعني بالدلالة على أغراضها فإنه يتطلب من المختصين والمفكرين العرب أن يبذلوا الجهد الكافي لتمكين المصطلحات الخاصة بها حتى تتسجم مع اللغة العربية وحتى يمكن استخدامها لدراسة واقع المجتمعات العربية والاستفادة منها بشكل يجاري فيه المصطلحات الأجنبية على اعتبار تطورها في تلك اللغة مما نفترض اجبار اللغة العربية على الانتشار والتوسع وجعلها لغة أيضا للعلم والتطور والاكتشاف وأيضا لغة البناء للمعرفة العلمية التي تقود لبناء نظريات نابغة من واقع يختلف في أكبر المعالم عن المجتمعات الغربية وبهذا الشكل يمكن الاستعمال والسيطرة على المعاني وتوظيفها.

ولذلك فالأمر غير كافي للاستفادة من المصطلحات التي تم بناءها في مجتمعات مغايرة للمجتمع العربي خاصة المعاصر الذي عرف التحولات السياسية، الاجتماعية والاقتصادية وحتى الإيديولوجية وطبيعي أن تظهر مشكلات مختلفة في الزمان والمكان عن المشكلات التي كانت مجالاً للدراسات والأبحاث والتحليل وبعدها للبناء على شكل تعددت فيه الأطر النظرية باختلاف منطلقات أصحاب النظريات وباختلاف التصورات المعرفية النابعة من الواقع الاجتماعي المعيش.

إن جهود ديكارت حول "مقالة الطريقة" وأعمال بيكون حول "التجديد الكبير للعلوم"، وأعمال سبينوزا حول "مصطلح الفهم والبحث" عن الحقيقة لمالبراناش Malebranche (بلانشي، 2004، ص1) كانت أعمال وكتبا ساهمت في بناء نظرية العلم في صورتها الأولى على اختلاف بينات أصحابها ولذلك الصفة التي تتمتع بها الابستيمولوجيا تجعلها قابلة للتواصل والاستمرارية على اختلاف البيئات التي تتطور فيها.

2.4 إستغلال الأسس:

إن الأزمة التي يعاني منها التنظير وإمكانية البناء تصورات في الوطن العربي المعاصر تتمثل أزمة استغلال الأسس الأولى للمعرفة والعلم على اعتبار أن هذه الأزمة التي أثارت نقائص المجموعات الزمن حتى الرياضيين بأن يعودوا إلى مبادئ الرياضيات كما فعل G.Frege في ألمانيا و B.Russelle في إنجلترا حتى استطاعت الأعمال في البلدان الغربية أن ترقى إلى مستوى التنظير وسن القوانين والسيطرة حيث استطاعت هذه الجهود أن تجمع بين الكفاءة العلمية والتفكير الفلسفي وهو جمع تفرضه حالة العلم وأهدافه حتى يستطيع التأصيل لذلك فالوضع الخاص للمعرفة في الوطن العربي يتحتم عليه أن يبذل الجهد للتخلص من ذلك الشعور بالتدني وعدم القدرة على استغلال الأسس الأولى للعلم والاختصاص كما هو الشأن للعلوم الاجتماعية، لأن المجتمع العربي مجتمع ككل مجتمع يتميز بصياغة خاصة في سلوكه من حيث الثقافة والسياسة والإدارة والاقتصاد (الخاقاني، 1987، ص85) في ظل النظام الإسلامي حتى وإن وقع الاختلاف حول التطبيق للمبادئ وعليه واختلاف التطبيق يعطي لوحة غير حقيقية عن الإمكانات المتوفرة في هذا المجتمع لبناء فكر نظري يستمد الدقة والعلمية من الواقع المعاش أو حتى الظروف التاريخية التي ساهمت في تشكيله وصقله على ما هو عليه من مركبات وتناقضات وتمايزات.

وفي سباق تحليل استغلال الأسس فإن الأزمة تكمن في الفراغ الذي صاحب الأعمال والاجتهادات التي تهاجم بها العلامة العربي ابن خلدون الذي أسس لميلاد علم الاجتماع أو علم المجتمع كما ظهر لأول مرة أي بها عرف من مفهوم ابن خلدون أو العمران البشري، إن هذا المفهوم يعد مم المفاهيم والأسس التي اعتمد عليها علماء العرب في تطوير البناء النظري الذي يحتوي العلوم الاجتماعية وتحديدا علم الاجتماع خاصة وأن ابن خلدون قد أشار فب المقدمة الخامسة "في اختلاف أحوال العمران في الخصب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في الأيدان البشر وأخلاقهم" (ابن خلدون، 1284 هـ، ص87)

هذا الذي يعني أن جهود ابن خلدون كانت كافية لبناء معرفي ينطلق من معطيات خاصة أي وفق مجتمعات تربطها قواسم مشتركة إلا أن ما وقع لأعمال ابن خلدون أنها لم

تواصل كما حدث لأعمال ماركس وحتى هذا أخذوه أو حتى أعمال أوكست كونت والمفكرين الذين اتبعوه في الطرح والفكر .

لذلك عندما نتحدث عن أزمة التنظير في الوطن العربي فإننا لا بد أن نرجع على الاختلافات والصراعات الفكرية وإن الاتجاهات السلبية وانقطاع التفكير العربي بعدم الاسترشاد بالفكر الخلدوني من أجل تأسيس مدرسة مغربية للعلوم الاجتماعية على الرغم من أن مقدمة ابن خلدون كانت مرجعية فكرية للفكر الغربي حتى أنه إذا تصفحنا القاموس الفرنسي "Larouse" نجد أنهم يقولون عنهم "مؤرخ عربي" ولد في تونس (1332-1406) وخلف كتابا ضخما يتضمن أخبار عامة مسبوقة بمعلومات تمهيدية (المقدمة) يعرض فيها فلسفته في التاريخ" (مغربي، 1988، ص5) هذا كل ما قيل عنه في هذا القاموس على الرغم من أنه قدم أول مفهوم لبناء معرفة لها جديد وطبعا هذا تقصير يعود في الأساس إلى الإهمال أولاً ثم الاستعمار وظروف البلاد العربية كما معنى حيث بذل المفكرون الغرب قصارى جهدهم في تشويه مضمون المقدمة وجعلها مجهولة عن أهلها، وحتى الأعمال التي أجريت حول ابن خلدون وفكره أنساهم في تطوير المعرفة بسبب مسألة التناول الجزئي مما أصابها بالصخور والضعف مما جعلها غير قادرة على بناء فكري نابع من أسس عربية.

فالإشارة إلى هذا الأمر تدفعنا للتأسف على عدم استغلال الأسس بالشكل الصحيح من أجل إعادة الاعتبار إلى المقدمة التي تشكل جزءا مهما في التراث العلمي والثقافي المغربي وحتى أيضا بالنسبة لعلم الاجتماع، والأصح هنا أن عمل ابن خلدون ليس فلسفة بقدر ما هو دراسة مجدية في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والأيدولوجية وفي الميدان العلمي حتى ابن خلدون نفسه يقول "فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة..." (مغربي، 1988، ص6) وهو يريد بذلك أن يؤكد أن تكون نقطة انطلاق للقيام بالبحوث المقبلة وبناء الفكر والسعي إلى التنظير. وعلى الرغم من وجود بعض المحاولات لمواصلة الفكر الخلدوني إلا أنه غير كافي ولم يرق إلى مستوى الاستقلالية عن الفكر الغربي والبناء النظري الذي تطور في إطار مغاير للمجتمع العربي. لذلك تشكل العصبية أهم الأسس والمنطلقات لبناء فكري يتمتع بالخصوصية والانفراد به وهو مفهوم محوري في المقدمة وفي أعمال ابن خلدون ولو قارنا جهود المفكرين الغربيين بالنسبة لجهود المفكرين العرب نجد أن الفرق كبير من حيث أن المفكرين الغربيين جعلوا من الحقيقة العلمية أول منطلق للاستمرارية في بناء المعرفة في حين أن الفكر العربي

تميز بالتقطع مع أنه عندما نتحدث عن التنظير للعلوم الاجتماعية لابد أن نشير مسألة نظرية العلم إلى نظرية المعرفة حيث أنها هي نسبة النوع إلى الحبس على أساس نظرية العلم تتحصر في تلك الصورة الوحيدة من صور المعرفة والتي هي المعرفة العلمية (بلانشي، 2004، ص17).

3.4 عدم شمولية الإطار النظري (لا وجود لشمولية مطلقة):

إن هذه الخاصية التي تتمتع بها النظريات تسمح بالانتقال من موقف نظري إلى موقف نظري آخر، هذا الذي يدفعنا إلى الإقرار بأن المعرفة ليست تمثيلاً للواقع بالقدر ما هي وسيلة لمجاراته لذلك من الطبيعي أن تشكل المحددات الأساسية التي تتوفر في المجتمعات أهم العناصر لإنتاج المعرفة، وهكذا يظهر الأمر ضروري لاستغلال المحددات التي تميز المجتمعات العربية الإسلامية من معالم دينية، وقيم ثقافية وروابط تاريخية لإنتاج مبادئ وقوانين علمية تفسره ونجاري أحداثه هذا الذي يسمح بظهور الثنائيات النظرية (غربي، 2007، ص74) وإدخال التراث الفكري العملي العربي في هذا السياق، على الرغم من أن القضايا التي تتصل بهذا الفكر ترتبط ارتباطاً منطقياً بالبحث الامبريقي التي ترفع النتائج منه إلى القضايا النظرية والتي يمكن ترجمتها إلى المبادئ التي تكون النظرية ولكي تتضح الرؤية أكثر من حيث أن خاصية عدم الشمولية تفتح المجال لبناء منطقي يستجيب لقضايا نسق نظري معين وفق مقدمات ومسلمات خاصة بهذا المجتمع الذي يختلف في الكثير من الميزات. وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أن القضايا التي تسمح ببناء النظرية لا تتعلق بالبحث الاجتماعي فقط بل كل القضايا التي نواجهها في حياتنا اليومية لفهم ما يجري لنا ولآخرين.

وليتحقق ذلك ولكي تستطيع الجهود الخاصة بالمفكرين العرب الوصول إلى إنتاج فكري معاصر لا بد من أن إخضاع ما يدور من حولنا إلى مبادئ نظرية معينة تستجيب كما يجري في الوطن العربي.

4.4 ميزة التغير والتعديل في العلوم الاجتماعية:

يمكن اعتبار هذه الميزة شرطاً من شروط تكوين النظرية في العلوم الاجتماعية في الفكر العربي المعاصر على أساس أن النظرية هي أيضاً ليست مطلقة ولا ثابتة وهي تخضع

أيضا للتعديل وهذا ما أثبتته التفكير العلمي منذ وقت طويل، لذلك تشكل هذه الخاصية أيضا دفعا لإنتاج نظريات وفقا لمحددات جغرافية وتاريخية مغايرة لما أنتج من تراث نظري في الغرب وفي أمريكا، إذن مبدأ النسبية لهذه النظريات يوفر الشروط المعرفية الممكنة على أساس عقلائي يفتح المجال للفكر العربي المعاصر ليحرر من هيمنة الفكر الغربي (Bourdieu et Passeron, 1970, p131)، حيث أن هذه علاقات تاريخية استعمارية لمعظم البلدان العربية وعليه يمكن استغلال الإمكانيات المتوفرة لخلق آليات بناء فكر عربي يفرض وجوده على المستوى المعرفي لأن هذه الهيمنة كانت جزء لا يتجزأ من شروط إعادة إنتاج فكر محدود حيث أنتجت هذه الأخيرة فكرا يدور في حركة دائرية، لعله ولبناء نظرية في العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، فانه من الضروري إعادة النظر في المفاهيم التي سادت والتي أنتجت ضمن دراسات وتصورات لواقع اجتماعي مختلف عن خصوصية المجتمعات العربية خاصة وان علم الاجتماع هو علم العصرية (M. boutefnouchet, 2004, page8).

بمعنى أن هذا العلم هو علم يواكب التطورات الحاصلة في المجتمع ويتماشى مع كل التراكمات حتى يتمكن من معالجة الإشكاليات المعاصرة، وبعد التصنيف التاريخي والجغرافي ومحاولة في هذا السياق لصياغة نموذج لدراسة ظواهر جديدة في إطار نظرية مستحدثة (أحمد زايد 2000، ص296).

حيث أن مسألة الاستحداث هذه تتضمن إطارا نظريا يواكب مستجدات المجتمع بالإضافة إلى هذا قد أشار الباحثون إلى فكرة مهمة تتعلق بالخيال في سياق عملية التنظير هذا الأخير الذي يتضمن الاستدلال والاستقراء الذي يعتمد في الأساس على قراءة ومراجعة التراث البحثي وذلك بالاستعانة بالخيال والبصيرة اللذان لا ينفصلان بل يشكلان قدرة عقلية (بورا مورييس القاهرة، 2009، ص78-79)

هذه القدرة هي في الأصل هي عملية عقلية محضة يحاول من خلالها الخيال العلمي لرفع الواقع لتحليله وتفسيره وإمكانية التنبؤ مستقبلا كصفة من صفات العلم التي تنظر في مشكلات هذا الواقع، واستخلاص منه ما يسمح لبناء نظرية معرفية شاملة تستطيع أن تحتوي ظواهر وواقع المجتمعات العربية.

إن عدم وجود نظرية اجتماعية ثابتة إذن في صيغها ورؤيتها وبراهينها بشكل دائم لذا تحتاج هذه الأخيرة (النظرية) بين الحين والآخر إلى تعديلات على المستوى المفاهيم والقوانين

بناء على تحدث من مستجدات (فالواقع هو المكان الأصلي لظهور النظرية) لذا يبدأ المنظر في بناء نظريته من ملاحظة سلوك اجتماعي معين (غربي، 2007، ص 21) يجذب انتباهه (يختلف السلوك الاجتماعي من بيئة اجتماعية إلى أخرى) وبتعديل تنظيري يبدأ المنظر بالاستدلال inductive الذي ينطلق فيه من الجزئيات إلى الكليات فمثلا دراسة لمصاحبة الفرد لأصدقاء السوء (كحالة جزئية) لكي يصل إلى سلوك المنحرف وعدم تماثله مع السلوك السوي في المجتمع (يعتبر حالة كلية) يتطلب منه التركيز أكثر على العناصر التي تقود إلى التفسير ثم إعادة التركيب للاستدلال عن الجزء بالنسبة للكل، كما انه يمكن الانطلاق أيضا من الكليات لينتهي إلى الجزئيات من هنا يستطيع الباحث بناء نظريته وفقا لقاعدة الاستنتاج التي ينطلق منها، وفي المقابل فإذا أردنا ملاحظة ميل الناس في المجتمع العربي إلى زواج الأقارب لمعرفة أسباب الميل (أي معرفة الجزئيات) فإن هذه القاعدة في بناء النظرية تسمى بالطريقة الاستنتاجية (غربي، 2007، ص 22).

5.4 أنواع الجماعات والمجتمعات:

تشكل هذه الفكرة شرطا من شروط بناء النظرية في الفكر العربي على اعتبار أن الاختلاف في التكوين كبير بين المجتمعات وتوفر الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وعليه تشكل هذه الظروف شرطا أساسيا لبناء معرفة تفسر المجتمع الإنساني لكل مراحل تكوينه خاصة وأتينا شبه متأكدين أن المجتمع البشري تكون في ظل عنصران أساسيان هما فكرة الصراع والتوازن بين الأفراد والجماعات، لذلك مرت البشرية بصنفان من التجمعات من الجماعات الأولى إلى المجتمعات المركبة واستنادا لهذه الاعتبارات تصبح العملية ممكنة للتشعب النظري في العلوم الاجتماعية وإمكانية التصنيف لها حسب التصنيف التاريخي والجغرافي.

5. خاتمة:

يتضح مما سبق في هذا البحث والعرض في المسألة المتعلقة بالشروط الممكنة للتنظير في الوطن العربي الذي تعيش فيه المعرفة حالة من الركود والتراجع وعدم الاستقرار على الرغم من بعض الجهود المبذولة هنا وهناك أنه اليوم أصبح الأمر أكثر من ضروري لبناء مسلمات تستطيع أن تحتوي ما يجري حولنا من حيث طبيعة الإنسان وطبيعة المجتمع في الوطن

العربي، وكان أيضا الوقت للحديث عن المساهمة العربية في النظرية الاجتماعية الذي لا يجب أن ينفصل عن التاريخ العربي عموما على اعتبار أن النظرية هي محاولة لتجديد الواقع فكما هو معروف أن النظرية الاجتماعية الغربية قد نشأت على إثر التغيرات البنائية والفكرية التي فرضتها الثورتين الصناعية والفرنسية حيث توجت التراكمات الفكرية والمنجزات العلمية بهذا الإنجاز وحاولت منذ البداية التعامل مع هذا الواقع الجديد الذي كسر كل شيء.

لذا يبقى هاجس التغيير أهم ما يجب أن يفكر فيه المفكر والباحث العربي خاصة في العلوم الاجتماعية التي تعاني من التأخير على مستوى التنظير لها وعلى النخبة امتصاص الاختلافات في الاتجاهات والحد من الصراعات التي تتوزع في مجالات ومواقع شديدة التنوع والتناقص على اعتبار أن المجتمع العربي يعيش مرحلة إنتقالية طال أمدها وهي بذلك مضطرة لأن تتعايش مع هذا الإنتقال مع أن كل مرحلة من مراحل الإنتقال ولم يحدث أن انتهى مرحلة حتى يباشر المجتمع العربي في الدخول في مرحلة أخرى برواسب المرحلة السابقة.

وعليه وللخروج من هذا الوضع وأهم ما ينبغي القيام به هو العناية بشكل أكثر بانشاء المؤسسات العلمية في ميدان العلوم الاجتماعية خاصة على مستوى التعليم الجامعي التي تحقق التوازن بين التعليم والبحث وخدمة المجتمع، وتشجيع المبادرات وتعزيز البحث العلمي والفكري لا من زاوية الاقتباس والتقليد وإنما تشجيع الإبداع بربط موضوعات البحث بالواقع وما يحدث في المجتمع، بهذا فقط يمكننا أن نتقدم بخطوات ناجحة نحو الأفضل ومحاولة تخطي وضعية إعادة إنتاج النظرية الاجتماعية الغربية على الرغم من أنه هناك تيار من المفكرين العرب من يرفض تماما الفكر الغربي ويدعو إلى فكر اجتماعي إسلامي.

فالمطلوب إذن اليوم من المفكرين العرب بناء فكر نقدي قادر على الإبداع لافراز وعي تاريخي يحركه فكر منطقي سليم يملك القدرة على التحاور مع التراث الإنساني منطلقا من خصوصيته التاريخية.

هذا الأمر لا يأتي من العدم وإنما لدينا الاجتهادات الأولى التي قام بها بعض المفكرين العرب كابن خلدون الذي كان سابقا لعصره في اكتشافه أهم المفاهيم للعلم الجديد، يمكن المواصلة من حيث انتهى على اعتبار أن المعرفة الإنسانية هي ثمرة الشروط الاجتماعية والظروف التاريخية إلي تنتج في ظلها، حيث الأمر يصدق عند الحديث عن العلوم الاجتماعية التي يمكن استغلال ما أنتج إلى حد الآن لإعادة النظر في الأسس والمبادئ التي تطورت في

شروط التنظير في العلوم الاجتماعية في العالم العربي المعاصر

ظلتها النظريات الغربية لإعادة بعث الفكر العربي من منابع وأصوله التاريخية ومن مفكره، كما أنه يمكن الاستفادة من الجهود التي قدمها مالك بن نبي عندما أشار العناصر الثلاثة للنظام هذا ليس بشيء إلا لكي تتفرد المعرفة وتؤسس لنفسها مبادئ نابعة من مجتمعاتنا ومن ثم نحتاج إلى خطوة فعالة من طرف المختصين في الشأن العربي لإحداث قطيعة نموذجية على مستوى معين ومضمون هذه العلوم التي تطورت في مجال معين والاحتراف بالفضاء العربي الذي من الممكن أن يكون مصدرا للمعرفة وللتنظير في هذا الإطار.

6. قائمة المراجع:

- أحمد زايد، اعتماد علام، التغيير الاجتماعي، مكتبة الأنجلومصرية، 2000.
- بورا موريس، الخيال الرومانسي، ضمن كتاب الخيال- الأسلوب، الحداثة- ترجمة جابر عصفور، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2009
- عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، 1284 هـ، ج1، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت، لبنان.
- الأخرس، صفوح، علم الاجتماع العام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1984.
- جواتيان، دراسات في التاريخ الاسلامي والنظم الاسلامية، ترجمة: الكويت، 1980.
- نبيل عبد الهادي، علم الاجتماع التربوي، دار اليازوري للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2007.
- رويبر بلوشي، نظرية العلم الايستمولوجيا، ترجمة: محمود اليعقوبي، ديوان المطبوعات الجامعية، 2004.
- زهري أرنيب محمد، واسماعيل محمد قباري: أساسيات علم الاجتماع الاقتصادي، المنشأ العامة للنشر والإعلان، طرابلس، ليبيا، 1985.
- عبد الباسط عبد المعطي وعادل الهواري، في النظرية المعاصرة لعلم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 1986.
- عبد الغني مغربي، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تعريب: محمد الشريف بن دالي حسين، ديوان المطبوعات الجامعية، 1988.
- علي غربي، علم الاجتماع والثنائيات (النظرية-التقليدية-المحدثة)، مخبر علم الاجتماع الاتصال للبحث، الترجمة، 2007.

- محمد، محمد طاهر آل شبيرا الخاقاني، علم الاجتماع بين المتغير الثابت، القسم الثاني، منشورات دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط1، 1987.
- محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الاسلامي، جزء3، ط1، سبأ للنشر، القاهرة، 1992.
- موريس كومبار، الاسلام في عظمته الأولى، بيروت، 1977.
- *Bourdieu et passeron, la reproduction, éléments pour une théorie du système d'enseignement, édition inuit, 1970.*
- *M.boutefnouchet.introduction à la sociologie_les fondements Office des publications universitaires. Alger.2004*
- *Giddens, the class structure of the advanced societies, London, hutclinson, 1973.*
- *Lexique de sociologie, édition Dalloz, 2eme édition, 2007.*
- *Marc Guillaume, l'état des science sociales en France, édition la découverte, 1986.*